الأخلاق عند الغزالي

زكي مبارك

ثقافة وعلوم إنسانية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة
ومدير عام التحرير

أحمد شوقي القيعي

رئيس التحرير

أنور زعلوك

الإدارة ٩٢ ش ع قصر العيني - القاهرة
ت ١١ / ٣٥٤١١١ ، ٣٥٤٣٨ / ٣٥٩٩١
تلكس دولي ٢٠٧٤

ستظل القاهرة .. دائما قلب العروبة والإسلام
النابض بمكانتها التاريخية والحضارية ..
في عالم الفكر والثقافة والنشر !!

سكرتارية التحرير.
شوقي الشعراوي
أنور عبد الدايم
محمد يوسف السيد

الإشراف الفني :
م. محمد أبو ليلة
حسن أحمد خليل

زكي مبارك

الأخلاق عند الغزالي

دار الشعب
٩٢ شارع الصحافة بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

قدم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ونوقش فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ، ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جدا » ولقب « دكتور فى الآداب » .

مقدمة

بقلم : د . منصور فهمي

لم يكد مؤلف هذا الكتاب يجتاز امتحان الدكتوراه مصحوبا بالموفق ، حتى قام نفر من أصحاب الأغراض : يذيعون عنه المفريات ، ويتقولون عليه الأقاويل . وقد بدا للمؤلف أن يدفع الشر بالنشر ، ولكن أستاذه الفيلسوف الدكتور منصور فهمي كتب اليه خطابا يوصيه فيه بالرفق ، وينصح له بالتثبت ، ويدعوه الى مقابلة الشر بالصفح الجميل .

والمؤلف يثبت هنا هذا الأثر الخالد ، وشكر أستاذه على نصيحته القيمة . ويعاهد ربه وقومه على ألا يعمل غير ما يعتقد أنه حق وصواب .

أخي العزيز :

طالما وجدنا في تاريخ الأفكار عامة حملات للنقد شديدة . وطالما رأينا علماء المسلمين وفلاسفتهم ينسال بعضهم بعضا بالنقد والتجريح . وطالما غلوا في النقد حتى انقلب ايذاء وايلاما .

ولكن هل أخفت شدة النقد يوما فضل المنتقد عليه ؟ وهل ضن الرماة على المنتقدين بما هم أهل له من الحرمة والمكانة ؟ وكيف ذلك ، والنقد ليس الا اداة لاظهار الحقائق واضحة جلية ؟

ولئن كان للناقد فضل في اظهار خطأ المنتقد عليه ، فلقد كان لهذا الفضل بسببه الى موارد العلم ، وخوضه في مسائل كانت سببا في يقظة هذا الباحث الأخير .

* * *

الا انه يجمل بنا حين ننظر فى كتب المتقدمين ، الذين يخالفوننا فى أساليب البحث ، ومناهج التفكير ، أن نتمثل أنفسنا فى أزمنتهم ، وأمكنتهم ، وأن نتمثل ما استخدموه للحصول على الحقائق من مختلف الأدوات ، لكى نلتمس لهم العذر ، اذ رأيناهم لم يصلوا الى الأغوار البعيدة التى ينبع منها الماء صافيا نقيا .

وما أبعد الفرق بين من يدخل الهيجاء بما سلحته به العصور الخوالى من سهام ونبال ، وبين من يدخلها مدرعا بما ابتدعته العصور الحديثة من معدات النزال ! وما أكبر الفرق بين الضوء ينبعث من زيت المصباح ، وبين النور يتفجر من ثريات الكهرباء ! ولكننا مع ذلك أيها الأخ العزيز نعجب بأصحاب القسى والنبال ، اذ لم تنقصهم الشجاعة ، ولم يفتهم الثبات ، ونحمد الأضواء الضئيلة التى تنبعث من زيوت المصابيح ، لأنها على ضآلتها تصدع جوانب الظلام .

فاذا رأينا الغزالى غفل عن حقيقة تنبهنا نحن اليها ، أو اغلق عليه موضوع فتحت لنا أبوابه ، أو أدركه وهن فى الرأى ، او تناقض فى فهم فكرة ، فجدير بنا أن نقدر ظروف زمانه ومكانه ، وان نذكر كيف كانت وسائله الى الفهم والادراك ، قبل أن نصب عليه جام اللوم والتثريب .

ان أهل تلك الأعصر الخالية ، كانوا يعتمدون كثيرا على ذاكرتهم ، وكانوا فى الوقت نفسه يتناولون كثيرا من الموضوعات ، لأن فكرة الاحصاء وتوزيع الأعمال ، لم تكن مألوفة لديهم على نحو ما هى اليوم ، وكانوا يرون الجد فى طلب العلم طاعة لله . فمن ثم حفظوا كثيرا ، وكتبوا كثيرا ، ولكن ضاق وقتهم ، ووهنت قوتهم ، فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا من العلوم الكثيرة ، فخلطوا الغث بالسمين ، وعرض لهم الضعف ، والتناقض ، والاضطراب .

وكذلك كان من أكبر الخدمات أن يتناول الشباب المثقف كتب

المتقدمين ، فيدرسها ، ويفهمها ، ويحللها ، ثم يبين ما فيها من الخطأ والصواب .

ومن أولى بذلك من طلبة الجامعة المصرية ، التي انشئت لوصل القديم بالجديد ، وحث الخلف ، على الانتفاع بميراث السلف ، وانقاذ الجيل الحاضر ، من غلطات الجيل الغابر ؟

لا يخطىء من يتناول كتب المتقدمين بالدرس ، والتمحيص ، والتهذيب ، بل ذلك حق وواجب ، لأن فيه حياة لما يجب أن يحيا من الأفكار ، وموتا لما يجب أن يموت من الأوهام ، ولأن في النقد الصحيح تهذيبا للمشاعر ، وتنويرا للعقول .

وانما يخطىء من يبالغ في حب المتقدمين ، فينسى سيئاتهم ، مع أن لهم سيئات ، أو يبالغ في بغضهم ، فينسى حسناتهم ، مع أن لهم كثيرا من الحسنات . والنقد الحق يرتكز على سرد المحاسن والعيوب ، بلا جور ولا محاباة ، وقد يذهب بصاحبه الى التوفيق بين الآراء المختلفة ، فيجعل من الروايا المتعددة التي ننظر منها الى الحقائق شكلا واحدا منسجم الرسم ننظر من نواحيه الى تلك الحقائق . فأعداء النقد ليسوا فقط أعداء لحرية الآراء ، ولكنهم أعداء لمارع التوفيق .

* * *

وأنت يا أخي درست مؤلفات الغزالي ، وفهمتها ، وحللتها ، وبينت ما فيها من الخطأ والصواب ، فماذا ينقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير ، حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته بالملام ، حين رأيت أن يذكر بالملام ، وما كان الغزالي بأكبر من أن يخطىء ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب .

لقد راعهم أن يمس قلمك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان عليهم أن يذكروا أنك شاب ، وأن قلم الشباب قاس شديد ، بل انهم عملوا بما طالبوك به من الرفق والهدوء ، فلم يوجهوا اليك فارس اللوم ، ومر التأنيب .

كانت رسالتك منارا للجدل والمناقشة، ويعلم الله أنا لن نغضب لذلك . لأنا نريد أن تخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث . وهل علمناك الا أن تكون خادما للحقيقة ولو شق اليها الطريق ؟ فما دمت ترى أنك على حق ، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السوى ، فلك أن تتمسك برأيك ، وتدافع عن حقك ، ولكن فى رفق ونزاهة ، فان الحق لا يخـــدم بمثل الرفق والنزاهة . وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق فان عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل ، فان الرجوع الى الحق فضيلة ، والتمـــادى على الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق الا الضلال .

* * *

لقد علمتنا رسالتك ، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة ، أننا قطعنـــا شوطا بعيدا فى سبيل الآراء الحرة ، المدعمـــة بالقوة والنهوض . وان كنا نأسف على أنه لا تزال هنـــاك صدور ضيقة ، يؤذيها الهواء الطلق ، وكان الخير فى أن تستروح به ، وتسكن اليه . ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير ، وعدد المفكرين قليل .

لقد زاد اغتباطى برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار الاسلامية بالنقد والتحليل ، وأرجو أن تكون خطوة تتبعهـــا فى هذا المدى خطوات . وان كان يحزننى أن يتألب عليك رجال المعهد الذى أعدك لدخول الجامعة المصرية . ولكن الانصاف يقضى علينا بأن نعترف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون . فانا نرى بكل أسف أن الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق ، وأنصار الآراء الجـــديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمـــود . وهم جميعا من المسرفين .

واذا كان لى أن أنصحك ــ ومن الواجب أن أنصحـــك ــ فانى أدعوك الى حرب هذه الضلالة . وحذار أن تقاطع أحدا من أساتذتك وزملائك فى الأزهر الشريف ، فانكم جميعا طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال .

لقد فات كثيرا من عشاق الجَديد أن يضموا اليهم أنصار القديم بالرفق والمجاملة وأنت بحمد الله ربيب الأزهر والمعاهد الدينية ، فماذا يضرك لو وصلت أساتذتك وزملاءك ، وجادلتهم بالتى هى أحسن ، لتسيروا أصفياء فى التوفيق بين القديم والجديد .

اننى أخشى عليك كثيرا أيها الأخ ، فقد رأيت كيف قامت القيامة حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك ، فماذا عسى أن يصنع هذا الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب ، ومختلف الأرجاء ؟

ولكن اياك أن تجزع ، وقد بدئت حياتك العلمية ، بصدمة من تلك الصدمات الاجتماعية ، فذلك دليل على انك خادم من خدام الاصلاح ، وهو خير لقب تلقى به الله .

ولك خالص الدعوات ، والعطف ، والسلام .

منصور فهمى

تعقيب للمؤلف

أكرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور منصور ، وأؤكد له أن بينى وبين علماء الأزهر الشريف عرا لا تقدر على فصمها الليالى . ولن انسى ما حييت انى مدين على الأقل لحضرات أساتذتى الأماجد الشيخ الدجوى والشيخ اللبان والشيخ الظواهرى والشيخ الزنكلونى والشيخ حسين والى والشيخ سيد المرصفى . فاذا قضت الظروف بأن تنقطع بينى وبين الأزهر جميع الصلات ـ لا قدر الله ولا سمح ـ فانى لن أنسى ولن ينسى أحد أنى مدين لأساتذتى فى الأزهر ، وأن خروجى عليهم ضرب من العقوق ، ونكران الجميل .

اللهم ان كنت تعلم انى صادق فيما أقول ، فاجزنى بخير ما يجزى به المؤمن الصادق ، وان كنت تعلم انى أظهر غير ما أضمر ، فاغفر لى وتب على فانك وحدك التواب الغفور .

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

وبعد فهذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية ، والذى سلقنى العلماء من أجله بألسنة حداد .

هذا هو كتاب (الأخلاق عند الغزالى) اقدمه للجمهور : ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق ، وحظ المرجفين من الصواب .

هذا هو الكتاب الذى رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى فجر لحسادى ينبوعا من اللغو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض . وما أنا والله بنادم على راى رايته ، أو قول جهرت به ، فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم ، أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ، ولغو اللاغين ، من مرضى القلوب ، وضعاف العقول ، وصغار النفوس ؛ وانما يحزننى ما يلاقى أصدقائى من العنت فى دفع ما يفترى الكاذبون ، ويختلق المفسدون .

على أن الغزالى رحمه الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت ، ولاقى ضعف ما لاقيت ، حتى لنجده يطمئن أحد اخوانه بقوله : « رايتك ايها الأخ المشفق موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع

سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى اسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيهـــا ما يخالف مذهب الأصحـــاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الأشـــعرى ولو فى قيد شبر كفر ، ومباينتـــه ولو فى شىء نزر ضلال وخسر ، فهون أيها الأخ المشفق على نفســك ، لا تضيق به صدرك وفل من غربك قليلا ، (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميـــلا) ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضـــلال لا يعرف ، فأى داع اكمل وأعقل من سيد المرســلين صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أســـاطير الأولين ، واياك ان تشتغل بخصـــامهم ، وتطمع فى افحامهم ، فتطمع فى غير مطمـــع ، وتصوت فى غير مسمع ، أما سمعت ما قيل :

كل العداوة قد ترجى ازالتها الا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس ، لما تلى على اجلهم رتبـــة آيات اليـــأس . أو ما سمعت قوله تعـــالى : « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهـــم بآية ولو شـــاء الله لجمعهم على الهـــدى فلا تكونن من الجاهلين » (١) . وقوله تعالى : « ولو فتحنـــا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقـــالوا انما سكرت أبصـــارنا بل نحن قوم مسحورون » (٢) . وقوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هـــذا الا سحر مبين » وقوله تعالى : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبـــلا ما كانـــوا ليؤمنـــوا الا أن يشـــاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » (٣) .

---

(١) كبر : شق . النفق : سرب فى الارض .
(٢) يعرجون . يصعدون . سكرت : حبست من النظر .
(٣) قبلا : عيانا ومقابلة ، وأخطأ النسفى حين ظنها جمع قبيل بمعنى كفيل .

وقد صار الغزالى بعد ذلك حجة الاسـلام . ونحن لا نريد أن يفتن الناس بنا كما فتنوا به ، فهل نرجو ان نظفر فقط بالسلامة من تقول المفترين ، وتزيد المعتدين ؟

« على الله توكلنا . وربنا افتح بيننا وبين قومنـــا بالحق وانت خير الفاتحين » .

محمد زكى عبد السلام مبارك

الباب الأول
في العصر الذي عاش فيه الغزالي

تمهيـــد

أريد أن أذكر شيئا عن العصر الذى عاش فيه الغزالى ؛ وليس ذلك لأن الغزالى صورة لعصره . بل ليعرف القارىء الى أى حد تأثر الغزالى بعصره وأثر فيه . فمن المجازفة أن ندرس عصرا من العصور ، لنعرف من نبغ فيـه من الفلاسـفة ، والكتـاب ، والشعراء ؛ وانما ندرس شخصية الكاتب ، أو الشـاعر ، أو الفيلسوف . ثم نبحث عن المؤثرات التى كونت تلك الشخصية ، فقد تكون هذه المؤثرات قريبة ، وقد تكون بعيدة . وفقا لما أحاط بالشخص من الظروف .

ولتوضيح هذا أذكر ان الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين درس العصر الذى عاش فيه أبو العلاء ، ليعرف الأصـول التى كونت وجهة نظره فى الحياة ، ثم فعل مثل هذا حين شرع فى درس ابى نواس ؛ ولكن الدكتور طه لا ينكر ان عصر ابى العلاء انتج رجالا يسيرون غير سيرته ، ويرون ما لا يراه ؛ وان عصر ابى نواس اخرج رجالا لا يسيغون العبث ، ولا يجيزون المجون ؛ فمن الواجب ان ندرس اولا ما بين ايدينا من آثار الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ، ثم نتبين بعد ذلك ما تألفت منه هذه الآثار فقد تكون نتيجة لمطالعات لا صلة بينها وبين العصر الذى ظهرت فيه . كما يمكن أن تكون نتيجة له بالذات .

والا فحدثنى كيف يكون الشيخ محمود خطاب السبكى صورة لهذا العصر ، وهو يكون من تلامذته جمهرة لا يشعر بها الناس ! وامثال الشيخ السبكى عديدون ، ولكنى خصصته لكثرة مؤلفاته ،

وقد يعثر عليه باحث يوما فى زوايا التاريخ ، أفتراه يدرس يومئذ هذا العصر ، ليعرف المؤثرات التى كونت عقلية هذا الرجل الذى يدهش حين تحدثه عن أهل هذا الجيل ؟ !

انه لا شك فى تأثير البيئة والعصر ؛ ولكن ينبغى أن نعرف ان من الناس من يعيش فى قومه وعصره ، بجسمه لا بروحه ، فلا يحس بما يحس به معاصروه ، وانما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال ؛ ففى مصر اليوم ، أناس من القرن الثالث ، وآخرون من القرن السابع ، كما فى مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه ، وأحب أن يعفينى القارىء من ضرب الأمثال .

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذى عاش فيه الغزالى وأكتفى بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة فى عصره ، ليتمثل القارىء زمان الغزالى ومكانه وليعرف ما تمس الحاجة اليه مما أثر بالفعل فى حياته العقلية : فان الغرض من هذا الكتاب انما هو ان ندرس بالتفصيل آراء الغزالى فى الأخلاق .

الفصـــل الأول
الدولة السلجوقية

— ١ —

لا نريد أن نفصل وصـول تلك العشيرة التركية الى الغلبة والاستيلاء على اكثر الأقطار الاسلامية ، فانه لا حاجة الى ذلك الآن ، وانما نذكر فقط صورة مجملة لتلك المملكة الضخمة ، التى تهيأ الغزالى ظلها الظليل .

ذكر الأستاذ محمد الخضرى (بك) فى محاضراته فى الجامعة المصرية ان عشيرة السلاجقة انقسمت الى خمسة بيوت : الأول السلاجقة العظمى ، وهى التى كانت تملك خراسان ، والرى ، والجبال ، والعراق ، والجزيرة ، وفارس ، والأهواز . والثانى سلاجقة كرمان . والثالث سلاجقة العراق . والرابع سـلاجقة سورية . والخامس سلاجقة الروم .

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى اسسها ركن الدين أبو طالب طغرل بك وحياتها ٩٣ سنة : من ٤٢٩ هـ — ١٠٣٩ م الى سنة ٥٢٢ هـ — ١١٢٧ م . وقد انقضت دولتهم على ايدى شاهات خوارزم .

واما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو اخو ألب ارسلان ، ومدة ملكهم ١٥٠ سنة . من ٤٣٢ هـ — ١٠٤١ م الى ٥٨٣ هـ — ١١٨٨ م . وقد انقضت دولتهم على ايدى الغز التركمان .

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سـنة ٥١١ هـ — ١١١٧ م . وانتهت سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٤ م على ايدى شاهات خوارزم بعد أن مكثت ٧٩ سنة .

واما سلاجقة سورية فكانوا من بيت تتش بن الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق . وقد ابتدات دولتهم سنة ٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤ م . وانتهت سنة ٥١١ هـ ـ ١١١٧ م . على ايدى الدولتين : النورية والارتقية . فكانت حياتها ٢٤ سنة .

واما سلاجقة الروم : ملوك قونية واقصرا ، فكانوا من بيت قطامش بن اسرائيل بن سلجوق ، وقد ابتدات دولتهم سنة ٤٧٠ هـ ـ ١٠٧٧ م . وانتهت سنة ٧٠٠ هـ ـ ١٣٠٠ م . فهى اطول دول السلاجقة حياة ، اذ مكثت ٢٣٠ سنة ، وقد انقضت على ايدى الأتراك العثمانيين والمغول .

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسيه لدخول بغداد فى حورتهم السلاجقه العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ ، اى ١٤٣ سنة .

واستخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء ، اولهم القائم بأمر الله الذى انتهى فى عهده العصر البويهى ، وآخرهم الناصر لدين الله الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة .

— ٢ —

عاصر الغزالى اكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى ، فقد شهد عهد عضد الدين ابى شجاع ألب ارسلان ، وجلال الدين ابى الفتح ملكشاه ، وناصر الدين محمود ، وركن الدين أبى المظفر بركياروق ، وركن الدين ملكشاه الثانى ، ومحمد بن ملكشاه .

وقد ولد الغزالى فى آخر عهد طغرل بك ، الذى ملك بغداد ، وتقرب من الخليفة حتى تزوج الخليفة بنت أخيه . والذى تطلع الى أن يتزوج من البيت العباسى . وهو امر لم تجر به العادة .